جامعة ديالى

كلية التربية الاساسية

قسم التاريخ

المحاضرة الاولى

محاضرات عصر الرسالة

م.د. أزهار غازي

٢٠١٥ م

١٤٣٦هـ

الفصل الرابع

البحث عن موطن جديد للدعوة الاسلامية

ان تطور الأحداث في مكة بعد نجاح المسلمين في الحصول على ملجأ آمن لهم في الحبشة ، وفشل زعماء قريش في حمل جميع العشائر المكية على مواصلة مقاطعتها لبني هاشم وبني المطلب ، كان يوحي باحتمال تحقيق المزيد من النجا الدعوة الاسلامية في صراعها مع زعماء المشركين في مكة .

غير أن وفاة خديجة بنت خويلد (رض) زوجة الرسول ﷺ ووفاة عمّه وحاميه ابي طالب بعد انتهاء المقاطعة قد ساهمت في زيادة الصعوبات التي تقف في وجه تقدم الدعوة ، ومن ثم أصبح من الضروري البحث عن سبل جديدة من أجل مواصلة تطور الدعوة وفتح آفاق جديدة لها .

ولا تتفق المصادر في تحديد التاريخ الدقيق لوفاة كل من خديجة وأبي طالب أو ايهما توفي قبل الآخر ومقدار المدة الفاصلة بين وفاتهما ، وقد لخّص ابن كثير هذا الخلاف بقوله: « ماتت خديجة وأبو طالب في عام واحد. وقال البيهقي : يلفني أن خديجة توفيت

بعد موت أبي طالب بثلاثة ايام..... وزعم الواقدي ان خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين، عام خرجوا من الشعب، وان خديجة توفيت قبل ابي طالب بخمس وثلاثين ليلة»[1].

ويقول ابن اسحاق في توضيح تأثير وفاة خديجة وأبي طالب على الرسول ﷺ: «فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلاك خديجة وأبي طالب، وكانت خديجة وزيرة صدق على الاسلام، كان يسكن اليها»[2]، أما ابو طالب فكان للرسول — كما يذكر ابن هشام — «عضداً له، وحرزا في أمره، ومنعة وناصرا له على قومه»[3].

يتضح مما تقدم، ان تأثير وفاة خديجة وأبي طالب على الرسول ﷺ كان عميقاً جداً، وكان ذلك أمراً طبيعياً لأن خديجة لم تكن مجرد زوجته وأم أولاده التي أمنت للرسول ﷺ حياة عائلية هانئة ومستقرة، وانما كانت خير معين له في ماله، وخير مؤازر له في طريق الدعوة الى الاسلام. أما عمه ابو طالب، فكان له بمنزلة الأب الذي رعاه في طفولته وشبابه، ووقف الى جانبه يدافع عنه وهو يبلغ رسالة ربه الى الناس. وقد كان لموقفه الحازم أثر كبير في حمل عشيرته على التضامن معه في الدفاع عن الرسول ﷺ وحمايته.

ويبدو أن زعامة بني هاشم قد انتقلت بعد وفاة ابي طالب الى أخيه ابي لهب، وهو من أشد أعداء الدعوة الاسلامية، كما أوضحنا ذلك آنفاً. لذا فقد التزم الرسول ﷺ بيته وأقل الخروج الى قومه[4]، ريثما يتدبر أمره في مواجهة الوضع الجديد. وقد ذكر ابن سعد أن ابا لهب شعر أن من مقتضيات الزعامة لعشيرته أن يتولى حماية الرسول ﷺ كما كان يفعل أخوه ابو طالب من قبل. لذا فقد ذهب الى الرسول ﷺ وقال له: «يامحمد أمض لما أردت وما كنت صانعاً اذ كان أبو طالب حياً فاصنعه، لا واللات لايوصل اليك حتى أموت وسب ابن الفيطلة النبي ﷺ، فأقبل عليه ابو لهب فنال منه، فولى وهو يصيح يامعشر قريش صبأ ابو عتبة، فأقبلت قريش حتى وقفوا على ابي لهب، فقال: مافارقت دين عبد المطلب، ولكني امنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أحسنت واجملت ووصلت الرحم. فمكث رسول الله ﷺ كذلك اياماً يذهب ويأتي

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ١، ص ٣١٢؛ راجع ايضاً: ابن اسحاق: المغازي، ص ٢٢٠ – ٢٢٣، ٢٢٧، ابن سعد: الطبقات، ج ١ ص ٢١١.

(٢) ابن اسحاق: المغازي، ص ٢٢٧.

(٣) ابن هشام: السيرة، ق١، ص ٤١٦.

(٤) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢١١.

لايعترض له أحد من قريش ، وهابوا ابا لهب »[٥] ، الى ان جاءة عقبة بن ابي معيط و جهل بن هشام فأخبراه ان الرسول ﷺ يقول ان اباه عبد المطلب سيكون في النار يوم القيامة ، فكبر ذلك عليه حمية للنسب ، فذهب الى الرسول ﷺ يسأله : « ياحمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ نعم ، ومن مات على مثل مامات عليه عبد المطلب دخل النار. فقال ابو لهب : والله لابرحت لك عدواً أبدا ، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار افاشتد عليه هو وسائر قريش »[٦] .

وهكذا نلاحظ ان عصبية النسب التي حفزت ابا لهب لمحاولة الدفاع عن الرسول ﷺ هي التي دفعته الى الرجوع عن موقفه والتضامن مع بقية زعماء المشركين في مخاصمته . ويبدو ان بقية افراد عشيرة بني هاشم قد اتجهوا نحو مسايرة ابي لهب في موقفه من الرسول ﷺ بعد ان تحملوا كثيراً من المشاق خلال فترة المقاطعة[٧] . وبذلك اخذ الرسول ﷺ يفقد الحماية العائلية والعشائرية التي تمتع بها خلال السنوات الماضية ، واصبح شخصه الكريم معرضاً للاذى والاضطهاد من قبل المشركين ، شأنه في ذلك شأن بقية المستضعفين من المسلمين.

وقد اوردت المصادر عدة صور من صور الاذى التي تعرض لها الرسول ﷺ[٨] ، كان من جملتها ان احد السفهاء اعترضه في الطريق ، فنثر على رأسه تراباً. فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت اليه احدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : لاتبكي يابنية ، فان الله مانع اباك. قال : ويقول : بين ذلك : مانالت مني قريش شيئاً اكرهه ، حتى مات ابو طالب ».[٩] .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢١١ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١١ .
(٧) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص٣٢٣-٣٢٤.
(٨) ابن اسحاق : المغازي ، ص٢١٢-٢١٤.
(٩) ابن هشام : السيرة ، ق١ ، ص٤١٦.

أولاً : محاولة نشر الدعوة في الطائف :

ان التطورات آنفة الذكر قد اقنعت الرسول ﷺ بالبحث عن موطن آمن للدعوة خارج مكة. وكانت مدينة الطائف هي اقرب المدن الى مكة. فقد كانت «تقع على مسافة ستين ميلاً من مكة، في ارض تتوفر فيها الينابيع والمياه، وتكثر فيها المزارع والبساتين، وبخاصة الكروم والاعناب. وكان سكانها منقسمين على انفسهم، وفيها عشيرتان بارزتان هما بنو مالك والأحلاف، فاما بنو مالك فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن، واما الأحلاف فكانت علاقتهم أوثق بمكة»[١٠].

ويبدو ان الرسول ﷺ قد فكر بالذهاب الى الطائف نظراً للروابط الوثيقة التي كانت تربط اهلها بمكة من الناحية الاقتصادية والسياسية والدينية. ومن المحتمل ان الرسول ﷺ قد قدر ان بعض اهل الطائف ربما كانوا يشعرون باستغلال اغنياء مكة لهم ويطمحون للتخلص من نفوذهم عليهم، الامر الذي قد يدفعهم للتعاون مع الرسول ﷺ او الايمان به رغبة في تأكيد قوتهم ومركزهم تجاههم[١١].

ومهما يكن من حقيقة الدوافع آنفة الذكر، فان الرسول ﷺ قد توجه الى الطائف، «يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء ان يقبلوا منه ماجاءهم به من الله عزّ وجل»[١٢]. وقد ذكر ابن اسحاق ان الرسول ﷺ توجه الى الطائف وحده[١٣]. بينما يؤكد ابن سعد انه كان قد «خرج الى الطائف ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين نبيء رسول الله ﷺ»[١٤] وربما كان ماذكره ابن سعد هو الاقرب للصواب نظراً لان طبيعة السفر في ذلك الوقت، وما يكتنفه من صعوبات ومشاق، كان يتطلب ألاّ ينفرد الرسول ﷺ وحده بالسفر.

وقد ذكر ابن اسحاق ان الرسول ﷺ عمد حين وصوله الى الطائف الى محادثة ثلاثة اخوة، وهم عبد ياليل واخويه، وكانوا يؤمئذ من سادة ثقيف واشرافهم[١٥]. وقد اشير الى ان هؤلاء كانوا «ينتمون لقبيلة عمر بن عمير المنتمية للاحلاف، فكانوا بذلك من انصار

---

(١٠) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص٣٢٤.

(١١) المرجع نفسه، ص٣٢٤-٣٢٥؛ وات: محمد في مكة، ص٢٢٠-٢٢١.

(١٢) ابن هشام: السيرة، ق١، ص٤١٩.

(١٣) المصدر نفسه، ق١، ص٤١٩.

(١٤) ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢١١.

(١٥) ابن هشام: السيرة، ق١، ص٤١٩.

قريش، وربما راود – الرسول ﷺ – الأمل باستمالتهم اليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية»[١٦]، غير انهم لم يصغوا الى الرسول ﷺ باهتمام، وعملوا على الاساءة اليه، وذلك بأن «أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليهُ ناس، وألجأوه الى حائط – اي بستان – لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه»[١٧]، وكانا من رجال بني عبد شمس في مكة الذين لهم اموال في الطائف.

غير ان ابن سعد يورد رواية تشير الى ان اتصالات الرسول ﷺ لم تقتصر على هؤلاء الثلاثة، بل انها تجاوزتهم الى غيرهم وذلك لانه مكث عشرة ايام بحيث «لم يدع احد من اشرافهم الا جاءه وكلمه فلم يجيبوه وخافوا على احداثهم، فقالوا: يامحمد اخرج من بلدنا والحق بمجابك من الارض، وأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى ان رجلي رسول الله ﷺ لتدميان وزيد بن حارثة يقيه بنفسه»[١٨].

لقد أورد ابن اسحاق عن الرسول ﷺ دعاء يعبر عن مقدار الألم والتأثر الذي احس به نتيجة سوء استقبال ومعاملة اهل الطائف له جاء فيه: «اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يارحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، الى من تكلني، الى بعيد يتجهمني؟ ام الى عدو ملكته امري؟ ان لم يكن بك عليَّ غضب فلا ابالي...»[١٩].

ويبدو ان احد الآثار السلبية التي ترتبت على فشل الرسول ﷺ في الحصول على نصرة اهل الطائف له في مواجهة قومه، ان عشيرته عدّت تصرفه هذا نوعاً من الانخلاع او التخلي عن حماية العشيرة. وبالتالي اصبح امر عودته الى مكة من الامور المحفوفة بالمخاطر. لذا فقد اخذ الرسول ﷺ يبحث له عن شخص قوي يدخل مكة تحت حمايته او جواره.

يقول الطبري ان الرسول ﷺ «لما انصرف من الطائف مريداً مكة مرّ به بعض اهل مكة. فقال له رسول الله ﷺ: هل انت مبلغ عني رسالة ارسلك بها؟ قال: نعم، قال: ائت الأخنس بن شريق: فقل له: يقول لك محمد: هل انت مجيري حتى ابلغ رسالة ربي؟ قال: فأتاه، فقال له ذلك، فقال الأخنس: ان الحليف لايجير على

---

(١٦) وات: محمد في مكة، ص٢٢٠.

(١٧) ابن هشام: السيرة، ق١، ص٤٢٠.

(١٨) ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢١٢.

(١٩) ابن هشام: السيرة، ق١، ص٤٢٠.

الصريح . قال : فأتى محمد ﷺ ، فأخبره قال : تعود؟ قال : نعم ، قال : إئت سهيل ابن عمرو، فقل له : ان محمداً يقول لك : هل انت مجيري حتى ابلغ رسالات ربي . فأتاه فقال له ذلك ، قال : فقال : ان بني عامر بن لؤي لاتجير على بني كعب. قال : فرجع الى النبي ﷺ فأخبره ، قال : تعود؟ قال : نعم، قال : إئت المطعم بن عدي ، فقل له : ان محمداً يقول لك : هل انت مجيري حتى ابلغ رسالات ربي؟ قال : نعم ، فليدخل ، قال : فرجع الرجل اليه ، فأخبره واصبح المطعم بن عدي قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو اخيه ، فدخلوا المسجد ، فلما رآه ابو جهل ، قال : أمجير أم متابع؟ قال : بل مجير، فقال : قد اجرنا من اجرت فدخل النبي ﷺ مكة . وأقام بها »[٢٠] .

ويلاحظ ان مركز الرسول ﷺ في مكة بعد عودته اليها من الطائف قد غدا أضعف مما كان في السابق ، لانه اصبح بمنزلة الحليف او المولى بعد ان كان ابن عشيرة صميم ، فلاعجب ان يكون عرضة الى مزيد من الاذى والاضطهاد كما ان من الطبيعي ان يضاعف جهوده في مجال البحث عن موطن آمن للدعوة في خارج مكة.

ثانياً : عرض الدعوة على القبائل العربية :

من المعروف ان ابناء القبائل العربية كانوا يقصدون مكة وبخاصة خلال الاشهر الحرم لغرض المتاجرة في الاسواق التجارية واداء مراسم الحج. فكان الرسول ﷺ يستثمر هذه المناسبات فيعرض نفسه «على قبائل العرب يدعوهم الى الله ، ويخبرهم انه نبي مرسل ، ويسألهم ان يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله مابعثه به»[٢١] . بل ان الرسول ﷺ ما كان يسمع «بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف الاّ تصدى له فدعاه الى الله ، وعرض عليه ماعنده »[٢٢] .

وقد أوردت المصادر اسماء عدد من القبائل التي كانت مواطنها بعيدة عن مكة مثل قبيلة كندة ، وكلب ، وبني حنيفة ، وبني عامر بن صعصعة ، ممن عرض الرسول ﷺ نفسه عليها في اثناء قيام رجال منها بزيارة مكة ، الاّانه لم يحصل منهم على اجابات مشجعة ، وربما كان ذلك بسبب تكذيب قومه له وتحذيرهم لابناء هذه القبائل منه.[٢٣] .

---

(٢٠) الطبري : تاريخ ، ج٢ ، ص٣٤٧– ٣٤٨ ، ابو سعد : الطبقات ، ج١ ، ص٢١٢.

(٢١) ابن هشام : السيرة ، ق١ ، ص٤٢٢.

(٢٢) المصدر نفسه ، ق١ ، ص٤٢٥.

(٢٣) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢١٥– ٢١٦ ؛ ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٤٢٣– ٤٢٤ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٢٨– ٣٥٠.

ويلاحظ ان احد رجال بني عامر بن صعصعة قد ادرك الآفاق الوحدوية التي ستنشأ عن نجاح الدعوة الاسلامية ، لذا فانه حاول مساومة الرسول ﷺ على ان يكون لهم الملك من بعده اذا قاوموا بنصرته . يقول ابن اسحاق ان بيحرة بن فراس من بني عامر بن صعصعة قال لقومه حين سمع كلام رسول الله ﷺ : « والله لو اني اخذت هذا الفتى من قريش ، لاكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت ان نحن بايعناك على امرك ، ثم اظهرك الله على من خالفك ، ايكون لنا الامر من بعدك ، قال : الامر الى الله يضعه حيث يشاء ، قال : فقال له : افتهدف نحورنا للعرب دونك ، فاذا اظهرك الله كان الامر لغيرنا ! لاحاجة لنا بأمرك ، فابوا عليه »[٢٤] .

ويبدو ان اقرب ابناء القبائل الذين اتصل بهم الرسول ﷺ الى الدعوة كانوا من اهل يثرب ، فقد ذكر ان الرسول ﷺ قابل في مكة سويد بن صامت ، وكان قد جاء الى مكة حاجاً او معتمراً وكان سويد ، انما يسميه قومه فيهم : الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه »[٢٥] ، فتصدى له الرسول ﷺ بالدعوة وتحاور معه ، وكانت معه مجلة لقمان ، ثم تلا عليه الرسول ﷺ شيئاً من القرآن الكريم « ودعاه الى الاسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : ان هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه »[٢٦] . كما ذكر ابن اسحاق ان فتية من بني عبد الاشهل من الأوس ، قدموا الى مكة يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج وذلك قبل وقعة بعاث بين الاوس والخزرج ، فلما سمع بهم الرسول ﷺ اتاهم فقال لهم : « هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له : وماذاك؟ قال : أنا رسول الله بعثني الى العباد ، ادعوهم الى ان يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وانزل عليَّ الكتاب . قال : ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال : فقال أياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثا : اي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له »[٢٧] ، الا ان قومه لم يستجيبوا لرأيه لانهم قد جاؤوا لغير هذا الامر[٢٨] .

---

(٢٤) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٤٢٤ – ٤٢٦ .
(٢٥) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٤٢٦ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٤٢٧ .
(٢٧) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٤٢٧ – ٤٢٨ .
(٢٨) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٤٢٨ .

ثالثاً : بدء انتشار الاسلام في المدينة :

ان الانقسام السياسي الحاد بين الاوس والخزرج الذي دفعهم لمقاتلة بعضهم بعضاً او التحدي العقائدي الذي كان يفرضه عليهم وجود اليهود بينهم في المدينة ، بالاضافة الى بعض العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي اوضحنا ابعادها في الفصل الاول ، كان يفرض على اهل المدينة حالة من التأزم والقلق النفسي الذي يدعوهم بشكل ملح الى البحث عن علاج جذري لاوضاعهم الصعبة.

ويبدو ان هذه الاوضاع كانت واضحة في ذهن الرسول ﷺ لان تطلعه للبحث عن موطن آخر للدعوة كان يفرض عليه متابعة الاوضاع في المدن القريبة من مكة عسى ان يفلح في اجتذاب اهلها الى قضيته ، بالاضافة الى ان لمدينة يثرب مكانة خاصة في نفسه ، وذلك لان أخوال ابيه من بني النجار كانوا من اهلها وان اباه عبدالله كان قد توفى ودفن فيها.

فكان من الطبيعي ان يتصل الرسول ﷺ بأهل المدينة للتحاور معهم ، وعرض نفسه عليهم كلما سنحت الفرصة لذلك ، وبخاصة خلال مواسم الحج . يقول ابن اسحاق : انه حين « اراد الله عز وجل اظهار دينه ، واعزاز نبيه ﷺ وانجاز موعده له ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم... كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة ، لقي رهطاً من الخزرج اراد الله بهم خيراً... – فقال – لهم : من انتم؟ قالوا نفر من الخزرج ، قال : امن موالي يهود؟ قالوا : نعم ، قال : افلا تجلسون اكلمكم؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عزوجل وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم في الاسلام ، ان يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا اهل كتاب وعلم . وكانوا اهل شرك واصحاب اوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم : ان نبياً مبعوثاً ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وارم ، فلما كلّم رسول الله ﷺ اولئك النفر ، ودعاهم الى الله ، قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا والله انه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه . فأجابوه فيما دعاهم اليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الاسلام ، وقوالوا : انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فعسى ان يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى امرك ، ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك . ثم